

الأندلسيون ومحاكم التحقيق

(٢ من ٢)

عادل سعيد بشتاوي *

■ «سوف تُفتح إسبانيا من جديد»، كان الأندلسيون يهتفون من عتمة الاضطهاد الذي أحاط بهم من كل جانب، «سوف تُفتح من جديد، وسوف يفتحها عرب المغرب. وساعة النجاة قريبة وسوف تأتي من شمال أفريقيا وبحاية ووهران. وسوف تُفتح سبنة أولاً ثم تُغزى إسبانيا من جديد، وسيمشي الفاتحون في خطى طارق وسيفتح الطريق أمامهم في صورة خارقة، وفي مضيق جبل طارق سوف يظهر جسر من الحديد وسوف يعبر العرب فوقه، وسوف يفتحون إسبانيا وسوف يصلون إلى جليقية»، (١) وإلى يسار جليقية الواقعة في أقصى الشمال الغربي من إسبانيا إقليم مشهور هو الباسك تحالف أهله مرة مع الأندلسيين وهاجموا مؤخرة جيش شارلمان فمزقوه وقتلوا رولان بعدما احتاج جيشه العاصمة مبلونة ونهبها. وقرب طرف المثلث الذي يجمع قشتالة القديمة ونافار وجليقية مدينة صغيرة تقع على نهر إبرة اسمها لوغرونو Log-rono، يسكنها نحو ٨٢ ألف نسمة، وربما كان العدد نصف هذا عام ١٥٧٦ عندما سلم عمال محاكم التحقيق إلى السلطات المدنية سيدة غرناطية اتهموها بالارتداد عن الكاثوليكية. ولا تعرف أين كانت هذه السيدة تسكن في غرناطة قبل نفيها إلى شمال إسبانيا بعد الثورة الكبرى، ولا تعرف إن كانت متزوجة ولها أولاد أم أن زوجها انتهى منفيًا في مكان ما من قشتالة. انتزعت الكنيسة أولادها من بين يديها ووزعتهم على بيوت المسيحيين القشتالتي الذين أخذوا بيوت أهل غرناطة المنفيين. كل ما نعرفه عن حياة هذه السيدة الأندلسية الغرناطية أن أسقف مدينة كالهورة (قلهرة) فرض عليها توبة سرية، ثم اعتقلتها محكمة التحقيق وأدانها بالارتداد وسلمتها إلى السلطات المدنية «متوسلة إليها التصرف معها بكل رافة وشفقة»، كما يرد في حاشية كل أوامر طلب تنفيذ حكم الإعدام بضحايا محاكم التحقيق وكأن المحكمة لا علاقة لها بإعدام الضحايا.

وفي ساحة لوغرونو نصب الجلادون المشقة لهذه السيدة المسلمة، ثم نقلوها بعد فيضان روحها إلى المنصة المعروفة وأضرموا فيها النار. وكان مضي على استشهاد هذه السيدة ١٨٠ سنة عندما ولد في تلك المدينة مؤرخ شغلته محاكم التحقيق الإسبانية تفكيره في معظم سنوات عمره الإناج، ووضع قبل وفاته عام ١٨٢٢ مؤلفاً ضخماً عن محاكم التحقيق يُعتبر إلى اليوم مرجع مراجع تاريخ تلك المحاكم. ولنا أن نتساءل ماذا كان يدور في خلد خوان أنطونيو لورنتي Juan Antonio Llorente وهو يطالع ملف هذه السيدة الغرناطية التي قضت في مدينته. ربما كانت ملفاً من آلاف الملفات التي أطلع عليها، أو مجرد رقم في إحصاءات ضحايا محاكم التحقيق، وربما وقف في ساحة المدينة يوماً وتصور تلك المرأة الغربية التي عاشت عمرها المقطع

في مكان غريب ولم يبق منها بعد الحرق ما يمكن دفنه. ربما تخيل سماع صراخها أو صراخ عشرات الآلاف من ضحايا محاكم التحقيق، وربما نستطيع نحن أيضاً أن نتخيلها ورأسها يتدلى فوق صدرها بعد انكسار عنقها وشفقتها لا تزالان مفتوحتين على آخر كلمة نطقتها. ما هي تلك الكلمة يا ترى؟ ما هو آخر شيء رآته في خيالها قبل أن تغمض عينيها للمرة الأخيرة؟ ابنها؟ ما اسم ابنها يا ترى؟ ابنتها؟ ما اسم ابنتها يا ترى؟ هل كبرت وتزوجت وأصبحت أمًا قشتالية صالحة أم أصبحت شيئاً آخر؟ لا نعرف. لا نعرف ما هي آخر كلمة نطقها الأندلسيون الذين احرقتهم محاكم التحقيق، ولا نعرف عددهم بالضبط؛ لورنتي الإسباني الذي تمكّن من وثائق محاكم التحقيق لم يتمكن منها غيره توصل إلى أن عدد الأندلسيين الذين قضت محاكم التحقيق حرقهم كان ٣١,٩١٢ أندلسياً وأندلسية، واستنتج أن عدد الأندلسيين الذين أوقعت بهم محاكم التحقيق عقوبات وغرامات مختلفة ٢٧١,١٥٠ شخصاً فيما احرقت محاكم التحقيق تماثيل رمزية لـ ١٧,٦٥٩ أندلسياً تمكّنوا من الفرار خارج إسبانيا أو اختفوا داخل تلك البلاد الشاسعة. هذه الأرقام المخيفة تعني إن مجموع ضحايا الأندلسيين، بين حرق وعقوبات، هو ٣٠٣,٣٦٢ أندلسياً وأندلسية، أي واحد من بين ثلاثة أندلسيين كانوا يعيشون في إسبانيا في حين كان عدد اليهود الذين احرقوا نحو ٢٠٠٠ شخص تقريباً خلال ولاية المحقق العام لمحاكم التحقيق الإسبانية توما دي توركيماده (١٤٨٣-١٤٩٦).

ومن المهم هنا التأكيد أن تركة محاكم التحقيق تركة كاثوليكية وإسبانية ثقيلة، مثل تركة الحروب الصليبية المشرقية. من المهم التأكيد أيضاً أن الإسبان، وحتى معظم الأوروبيين قبل صعود البروتستانتية، لم يجرؤوا على انتقادها أو الحديث عن جرائمها. لكن المؤيدين كانوا كفرة أحدهم هو المؤرخ الإسباني المعاصر لتوركيماده سباستيان دو أولميبدو Sebastian de Olmedo الذي يصف توركيماده بأنه «المطرقة التي تضرب الهراطقة، ونور إسبانيا، ومخلص الدولة، وشرف رهبانيتها (الدومينيكية)». ولا يبدو لي بعيداً جداً عن المنطق والقبول إقتراح تقدير اعتباطي سنوي لعدد من حكمت عليهم محاكم التحقيق الإسبانية كلها بالحرق بنحو ١٠٠ شخص فقط (خمسة لكل من المحاكم) على مدى حياة هذه المحاكم التي استمرت ٣٥٦ سنة بمجموع يبلغ ٣٥,٦٠٠ ضحية، وهو رقم غير بعيد عن مجموع ضحايا المحاكم من اليهود والأندلسيين. ونجد أن مجموع الحرقى في مدينة مرسية الصغيرة مقارنة بغيرها من المدن الإسبانية، حسب إحصاءات لورنتي، كان ١٣٢ شخصاً خلال سبع سنوات فقط بين ١٥٥٧ و١٥٦٣ (أي بمتوسط سنوي قدره ١٩ شخصاً) فيما كان عدد المعاقبين ٢٢٧ شخصاً خلال الفترة نفسها. (٢)

وتظهر وثيقة لمحكمة التحقيق في طليطلة أن محصلة الضحايا بين عامي ١٥٧٥ و١٦١٠ كانت ٤١١ شخصاً منهم ١٧٤ شخصاً اتهمتهم المحكمة بممارسة الشعائر اليهودية، و٤٧ شخصاً بممارسة

البروتستانتية، إلا أن عدد المتهمين بممارسة الدين الإسلامي كانوا ١٩٠ شخصاً وهي نسبة لا تقل عن النصف كثيراً. ويبدو أن المتهمين بممارسة الإسلام كان يشكلون جزءاً مهماً من المحكوم عليهم بالحرق حتى بعد أكثر من ١٠٠ سنة من تغريب الأندلسيين. ولدينا مثال على ذلك في ما حدث عام ١٧٢٨ عندما قضت محكمة التحقيق في غرناطة بحرق ٧٣ من نسل الأندلسيين على دفعتين: الأولى في أيار (مايو) تألفت من ٤٥ أندلسياً إلى جانب عدد آخر من المتهمين بالهرطقة، والثانية في تشرين الأول (أكتوبر) حين أحرق ٢٨ أندلسياً. وجاء تنفيذ هذه العقوبة بعد عام تقريباً من التحقيق والتعذيب خضع لهما عدد من القساوسة والعسكريين والإداريين المسلمين ومجموعة كبيرة من المسلمات بعد مدامتهم وهم يؤدون الصلاة في جامع سري. وتنقل كاتبة بريطانية (٣) عن مؤرخ محاكم التحقيق الأميركي المشهور هنري تشارلز لي Henry Charles Lea عثور محاكم التحقيق في غرناطة على مسجد سري عام ١٧٦٩. ولا تشير الكاتبة إلى مصدرها، لكن نعرف أن لي بحث جيداً في أرشيف مدينة بلنسية، ولم يجد أي إشارة إلى اعتقال محاكم التحقيق موريسكيين بين عامي ١٧٨٠ و١٨٢٠.

ومن المهم جداً استمرار كل الجهود الممكنة للوصول إلى تقدير فعلي لفاحة المأساة التي تعرضت لها الأمة الأندلسية الشهيدة في إسبانيا. والرقم النهائي من وجهة النظر هذه بالذات ليس مهماً فربما كان إحراق امرأة واحدة فقط أو رجل واحد فقط لأنه لا يريد أن يفكر مثل الآخرين جريمة لا يمكن تسويغها في أي مكان وزمان. وربما وجب التفريق بين شيء مثل العنف وشيء مثل القسوة. إن العنف شيء مؤسف مهما كان سببه لكنه من طبيعة الإنسان كما يبدو. أما القسوة فشيء آخر. يوجد شيء شيطاني في القسوة، ويوجد شيء شيطاني في إصرار محاكم التحقيق على قتل الأمل الذي ظل يربقه في عيون الأندلسيين قوياً يخطف الأبصار على رغم كل شيء وحتى اللحظة الأخيرة. لهذا اعتبر الأندلسيون حكام محاكم التحقيق «حلفاء الشيطان»، ولهذا رأوا في محكمة التحقيق مكاناً يحكمه «الشيطان الذي اتخذ من الخديعة والتضليل مستشارين له» ولهذا قال أحد الأندلسيين لعمال محاكم التحقيق «جلالة الملكة الكاثوليكية إيزابيلا ليست موجودة في الجنة كما يقول المسيحيون بل في الدرك الأسفل من جهنم لأنها أسست هذه «المظلمة» ومعها اليهود الذين يجب ألا يخرجوا منها بل يبقون تحت رحي الطاحونة التي تطحن رؤوسهم». (٤)

نهاية محاكم التحقيق

قاد محاكم التحقيق الإسبانية الأساقفة أو الكهنة على رأس مجموعة ضمت عدداً كبيراً من القساوسة والكهنوتيين لتحقيق هدف ديني هو ضمان نقاء (وبقاء) الكاثوليكية من خلال اضطهاد سائر أصحاب الديانات الأخرى. إلا أن هذه المحاكم لم تكن مؤسسات دينية في كل تاريخها الطويل فارتبط نهوض هذه المحاكم بنهوض الملوك والملكات



البلاد ثانية عام ١٨٢٣ وأخمدوا الثورة. وحاول فرناندو أحياء محاكم التحقيق لدعم سلطته لكن الفرنسيين عارضوا الخطوة في صورة حاسمة فتخلّى عن خطته.

وانتهت محاكم التحقيق الإسبانية إلا أن محكمة تحقيق مشهورة هي محكمة التحقيق الرومانية التي كان من ضحاياها بعض أشهر المفكرين والعلماء في عصر النهضة الأوروبي مثل جيوردانو برونو وغاليليو غاليلي لا تزال معنا حتى اليوم.

المصادر:

- ١- «الموريسكيون الأندلسيون والمسيحيون»، لوي كاردياك، ترجمة عبد الجليل التميمي، (زرغان، ١٩٨٣)، ص ١٠٤.
- ٢- Llorente, Juan Antonio. Historia crítica de la Inquisición de España, II, pp. 284-385.
- ٣- Plaidy, Jean. The End of the Spanish Inquisition, Star, (London, 1961), p 65.
- ٤- المرجع رقم (١)، ص ٦٤.

* من فصل بعنوان «الأندلسيون ومحاكم التحقيق» في كتاب «الأمة الأندلسية الشهيدة - تاريخ ١٠٠ عام من المواجهة والاضطهاد بعد سقوط غرناطة» الذي يصدر مطبع العام الجاري.

* من أسرة «الحياة»